الطور الجديد للمسألة المصرية

بدأنا مرة بعد أخرى بكتابة مقال مفصل في المسألة المصرية ثم كنا نترك نشره لسبق الجرائد اليومية ايانا الى نشر مقالات كثيرة في معنى ما كتبنا ما غادرت متردماً، بل جاؤا بالذرة، وأذن الجرة كما قيل في المثل. فان كان أكثر ما كتب لم يخل من تحريف للجدل او تحيز الى فئة فذلك أحرى باستقصاء أصول المسألة وفروعها — فنكتفي اذا باستخلاص الزبد من الخميض واستنباط النتيجة من المقدمات، بكلمات وجيزة نحرز في المفصل، ونعطي قارئها من الموعظة والاعتبار والحكم ما لعله لا يجده كله في غيرها

مقدمة وتمهيد

(١) قد سبق الذكاء الفرنسي الدهاء الانكليزي الى معرفة مكانة مصر من ارتباط الشرق بالغرب وما فيها من ينابيع الثروة فدا اليها حسامه نابليون الاول نابغة عصره في الذكاء والاقدام، ولكن الدهاء الانكليزي قطع ذلك الساعد الذي مد الحسام، ثم اعانت العلوم والفنون الفرنسية محمد علي الكبير على تكوين دولة جديدة عربية، فعارضتها انكلترة بنفوذ الدولة التركية، حتى وقفت مدها، وأرجعتها الى ما وراء حدها، ثم تعاون الدولتان على ارهاق مصر في زمن اسماعيل، ثم سبقت ادهاهما الى احتلالها في عهد توفيق

(٢) كانت نهضة مصر في عهد محمد علي مادية محضة. الحاكم الاعلى لها شارع ومنفذ ومالك متصرف في البلاد وأهلها تصرف السيد المالك بماله وعبيده، وما كان يرجى ان تتكون في ظل هذا الحكم بهذا العصر أمة، ولا ان تمتز دولة، بل يهدم مستبد مفسد، ما بناه مستبد مصلح، كما هدم اسماعيل المبذر، ما أسسه محمد علي الممعن. حدثني المرحوم حسن عبد الرازق باشا ان قيمة اطيان القطر المصري كلها ما كانت تزيد في آخر مدة اسماعيل عما كان عليه وعلى البلاد من الدين للاجانب

(٣) ان غايات الاضداد تتصل بمباديها ففي عهد اسماعيل الذي انتهى اليه الاستبداد في محق ثروة البلاد وافساد الاخلاق — زرع ونبت غرس الاصلاح الاجتماعي والسياسي والادبي بارشاد حكيم الشرق وموقظه السيد جمال الدين

الافغاني مؤسس الحزب الوطني الاول في مصر ومعلم الكتابة والخطابة والسياسة والفلسفة . ولكن بريطانية العظمى كانت بالمرصاد لهذا الاصلاح المعنوي، فناوأته كما ناوأت ذلك الاصلاح المادي ، فأغرت توفيق باشا بنفي السيد جمال الدين من البلاد بعد ان كان قد عاهده — وهو ولي العهد — على العمل بما اقترحه من الاصلاح ، ومنه جعل حكومة البلاد نيابية وتعميم التعليم وغير ذلك ، ولكنه قال عند خروجه من مصر انه ترك فيها من يتم ما بدأ وهو مريده الذي احاط بمبادئه ومقاصده الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده

(٤) تجدد في البلاد عهد الاصلاح المادي والمعنوي معا في اول امارة توفيق اذ تولى الوزارة مصطفى رياض باشا ذو الفطرة الظاهرة والوطنية الصادقة التي لم ترَ مصر في تاريخها الحديث وزيرا يدانيه في مجموع اخلاقه وفضائله واستقلاله وعدله واصلاحه الاداري وان وجد فيها من الوزراء وغيرهم ألوف فاقوه في العلوم القانونية بأنواعها مع المشاركة في بعض الفنون التي لم يكن يعرفها — فقام هو باصلاح المالية والادارة خير قيام . وولى الشيخ محمد عبده ادارة المطبوعات ورئاسة تحرير الجريدة الرسمية فتوسل الشيخ بهذا الى اصلاح لغة الصحف والدواوين ثم الى اصلاح التعليم الرسمي وغير الرسمي كما فصلناه في ترجمته وترجمة رياض باشا ولكن كان من سوء حظ مصر ان وقف سير هذا الاصلاح بالثورة العرابية المشؤومة التي انتهت بالاحتلال الانجليزي قاتل الامم ومفسد الشعوب ومذل البشر

(٥) توسل الانكليز الى الاحتلال بتغلب أمير البلاد توفيق واستدراج السلطان صاحب السيادة عليها واستخدام اسمه ونفوذه ، وخداع اوربة بايهامها انهم يقصدون حماية رعاياها وحفظ أموالها ومصالحها ، وبلغوا هؤلاء وأولئك بأن الاحتلال موقت لا تقصد بريطانية العظمى فيه لنفسها نفعا ولا تنوي سيادة ولا أثرة، وانما تنوي خدمة مصر واوربة والانسانية . وياسلما خدعوا البشر بمثل هذا الايهام . ولم تعرف عامة أمم الارض رياءهم وخداعهم الا في هذه الايام ، ثم طفقوا يمكنون نفوذهم بالتدريج ، ويسيطرون على الادارة والقضاء والتعليم ، ويفسدون اخلاق العامة بالاباحة التي يسمونها الحرية ، واخلاق الخاصة بخدمة الحكومة ذات الرواتب العظيمة ، ويمنون على الشعب بأنهم المنقذون له من ظلم الترك واعوانهم ، والمعدون له للاستقلال الذاتي

حتى اذا ما استتب لهم ذلك رأوا انه لا بد من ان يعدوا ما كانت البلاد متوجهة اليه من اصلاح الري وترقية الزراعة لتكون البلاد بنوع ثروة لهم ، ولكنهم ندموا أخيرا انهم لم يحولوا دون تعطيل بعض الاهالي للثروة الواسعة في بلادهم كما يعلم مما يأتي

(٦) ظل الانكليز يعهدون السير على نظام مصر الى مستعمراتهم مدة ثلث قرن وينتظرون الفرص لكدأبهم ، حتى اذا ما اشتملت نار حرب المدنية المادية الملعونة وآذنوا الدولة العثمانية بالحرب ، اظهروا الاتفاق معها كان لهما من السيادة على مصر ، واعلنوا حمايتهم عليها ، وأنفقوا أيديهم في رجالها ، وأموالها وغلالها ، وحميرها وجمالها ، بل تصرفوا في كل شيء للحكومة وللامة واستخدموه في حرب الدولة العثمانية صاحبة السيادة الشرعية على البلاد التي لم تكن تستخدم في سيادتها أحدا في نفسه ولا تصادره في شيء من ماله ، حتى ان الحملة التي وجهت الى فتح فلسطين في آخر حرب صليبية — كما وصفها رئيس الوزارة البريطانية (لويد جورج) — قد سموها الحملة المصرية ، وقد كانت هذه التسمية حقا وان قصد بها معنى آخر خفي — وهو الانتقام بثأر قلب الاسد وسائر الصليبيين الذين كسرهم مسلمو مصر وغيرها بقيادة صلاح الدين (قدس الله روحه) وانتزاع البلاد المقدسة من ايدي حملة مصرية من العاملين فيها من شبان مسلمي مصر وجل المال الذي انفق فيها على السكك الحديدية وغيرها من مال مسلمي مصر — كما أنه تم بمساعدة أكثر الامراء المنسوبين الى نبي الاسلام ، عليه وآله من دونهم الصلاة والسلام . ولو قصدوا بالتسمية معناها الحق ، لما صح ان يجاروا المصريين على ذلك ، بل لوجب ان يثأروهم بهذا الفتح وجميل ما لهم عليها من حكم البلاد التي فتحوها كما حمدوا الانتقام مثل هذا الحظ بل أكثر منه في حكم السودان لما رأوا مصر في عهدها الثاني له بعد اجبارها على تركها اياه ، وان كان مصر أثر في هذه الشركة بالعلم ، وحملوا المصريين فيها العبء الاكبر بانفاقهم مئات الملايين على أثر الانفاق على هذا الامر بينهم وبين بلاد [illegible] التي [illegible] ومئات مدائن امتنع [illegible] رئيس [illegible] من [illegible] هذا حتى [illegible] في البلاد [illegible] هذا الامتناع [illegible] على شرطه

وزاهته واستقلاله، على ما كان من ضعف ارادته ... وهم واستسلامه

الحماية البريطانية والوزارة الرشدية

(٧) أعلنت بريطانية العظمى الحماية على مصر بالاتفاق والمواطأة مع وزارة رشدي باشا التي كان عدلي باشا أحد أركانها. وهذه الوزارة هي التي مكنت للانكليز في البلاد، ومكنتهم من استخدام كل ما تملك الحكومة والامة من الاعيان والمنافع والاثاث والدواب والانعام، ولولاها لما استطاع الانكليز ان يستخدموا زهاء ألفي ألف شاب مصري وينتفعوا بما يقدر بألوف الالوف الكثيرة من الجنيهات، وقد نقل عنها انها لم تفعل ذلك الا عن وعدة وعدوها اياها وهي منح البلاد الاستقلال الاداري بعد انتهاء الحرب. وما كان رجالها اول من خدعته الوعود البريطانية فنقول انهم لا يفقهون السياسة وأغاديبها — ولما انتهت الحرب وزال الخطر عن بريطانية العظمى واحلافها، وشعرت بأن أزمة سياسة العالم صارت في قبضة يدها، قلبت لمصر ظهر المجن وشرعت تمهد السبيل لضمها الى املاكها، والاجهاز على لغتها العربية التي طالت محاربتهم لها واستبدال اللغة الانكليزية بها، وجعل السلطان الغالب في هيئتي حكومتها التشريعية والتنفيذية للانكليز وغيرهم من الاوروبيين، والقبض على ناصية الثروة والمواصلات التي هي شرايين الحياة الادارية والمالية في الامة — وقد ظهرت مبادئ هذه المقاصد في عمل اللجنة التي ألفت لوضع نظام لالغاء الامتيازات الاجنبية وحصر النفوذ الاجنبي في البريطانيين وقد كان عدلي باشا عضوا فيها. فلما رأت ذلك وزارة رشدي ظهر لها ان هلاك مصر بالاستعباد للانكليز واقع على يديها، فكبر عليها الامر، وسدت في وجهها منافذ الحيل، حتى ظهرت مبادئ النهضة الوطنية الجديدة على يد سعد باشا زغلول ورجاله

تأليف سعد الوفد ومساعدة رشدي وعدلي

(٨) ان خبر تأليف سعد باشا للجنة وطنية تسمى لاستقلال مصر باسم الوفد المصري معروف، ومشايعة وزارة رشدي باشا له غير مجهولة، وقد كانت قيمة مساعدتها حق السلبية ثمينة، وأمل الانكليز بعدم مقاومته عند أخذ وثائق التوكيل من ممثلي الامة للوفد بطلب الاستقلال التام. وقد حاول مستشار الداخلية الانكليزي منع هذه الوثائق فلما لم يستطع استخدام الوزارة فيه كان عمله أبتر ناقصا فكان هذا من اظهر الشواهد على عجز الانكليز عن

التصرف في الامة بأنفسهم، فهم لم يعملوا شيئاً ضارا ولا نافعا الا بأيدي المصريين . ولم تكن مساعدة الوزارة لسعد باشا عن تواطؤ وتعاهد على السعي معه الى الاستقلال التام الذي التزمه اذ لم تكن ترجو هذا وانما رأت ان قيامه بهذا الامر يكون وسيلة لها الى أحد الامرين اما الحصول على استقلال اداري واسع مع الارتباط بالامبراطورية بالحماية أو السيادة على ما كانت وعدت به عند اعلان الحماية ـ واما اثبات وطنية افرادها لتعلم الامة أن موافقتها للدولة البريطانية على اعلان الحماية ومساعدتها اياها على استخدام قوى الحكومة والامة في الحرب كان عن اجتهاد في خدمة البلاد يغفر لها خطأها فيه حسن النية والتكفير عنه بمساعدة الامة على طلب الاستقلال

الاستعداد للاستقلال وأسبابه

(٩) ان استعداد الامم للانقلابات الاجتماعية التي يظهر بها انتقالها من طور الى طور انما يتم بأعمال شتى في أزمنة مختلفة تكون كالمقدمات للنتيجة فلا يعلم عند النظر في كل منها منفردا ماسيفضي اليه او ماسيترتب عليه عند اتصاله بغيره على وجه مخصوص ، وان رجال الاستعمار من الافرنج يراقبون الشعوب التي يسودونها ليحولوا بينها وبين الاعمال التي تجتمع بها كلمتها فتكون أمة مستقلة بالاستعداد بالقوة، الذي لابد ان يتبعه الاستقلال بالفعل فيصرفونها عن هذه الاعمال ويشغلونها بضدها بقدر علمهم واجتهادهم ، وقد يخونهم العلم فيعملون بأنفسهم لاعداد الامة للاستقلال مالا تستطيع عمله او مالا يأتي منها وهم لايشعرون ، فلم يكن لورد كرومر (وقد كان اوسع انكليز مصر علما وخبرا وحزما) يعلم بأن اباحته للمصريين حرية الانتقاد على حكومتهم وأعظم رجالها سيكون سببا من أسباب جمع كلمتها اذ كانت الحكومات هي السالبة لاستعداد الشعب بمصر والحائلة دون جعله أمة ـ وانما كان منتهى اجتهاده في ذلك ان سقوط هيبة الحكومة الوطنية وزوال سلطانها يجعل المصريين خاضعين للانكليز خاضعين لهيبتهم وحدهم، وهم الذين لا يطمع أحد في اضعاف سلطانهم ـ ولم تكن السلطة العسكرية البريطانية تعلم ان ذلك التصرف في أموال الفلاحين وسائر الطبقات الواسئة وفي أنفسهم يولد عندهم من العلم بضرر السلطة الاجنبية والشعور بكراهتها وعداوتها ما تشارك به أعلى الطبقات علما وأشدهم شعورا فتجعل الامة كتلة واحدة وكلمة واحدة ـ بل أقول ان الحكومة البريطانية

العليا في لندن كانت تجهل ماتلده لها الدعوة (البوربغندة) التي نشرتها في العالم كله طول سني الحرب لاقناع الامم كلها بأنها مع حلفائها يقاتلون لتحرير الامم والشعوب وازالة ما يريده الالمان وحلفاؤهم من جعل السلطان للقوة دون الحق - وهو توجه أتعس الشعوب المستعمرة او المستعبدة بالإسماء المختلفة الى الحرية والاستقلال وبغض المستعبد واحتقاره والخروج عليه مهما تكن النسبة بعيدة بين قوته وضعفها - كما كانت تجهل بالاولى ان تعي سعد باشا زغلول ورفاقه من مصر عند اظهارهم الاستعداد لطلب الاستقلال يولد في مصر ثورة اجتماعية عامة . كيف وقد سمعت هذه الحكومة ممن كانت تعده أعلم رجالها بحال المصريين - وهو مستشار الداخلية السابق - قوله : اذا اشتعلت نار ثورة في مصر فهو يطفئها ببصقة من فمه !

الوحدة المصرية وما حدث من صدعها

(١٠) ظهرت مبادئ استعداد الوحدة المصرية للاستقلال ونبذ السلطة الانكليزية بعد وقوع اسبابه التي أشرنا الى بعضها في زهاء ثلث قرن فكانت كلما قاومها الانكليز تزداد قوة لانها حقيقية لا صورية مدبرة كما ظنوا بادئ ذي بدء ، ولو علموا انها حقيقية لعالجوها باللين والخدعة ، لا بالشدة والصراحة ، ولكن هذه الوحدة لم تعش أكثر من عامين حتى فت في عضدها التفرق والانقسام ، ومن العجيب أن أعظم مظاهر الاعتصام والوحدة ، قد كان هو نفسه أعظم مظاهر الانفصام والفرقة ، الا وهو الوفد المصري الذي اجمعت الامة على الثقة به وجعلت في تصرفه مئات الالوف من الجنيهات ، لقد جنى الوفد على نفسه بما جنى على الامة فخابت فيه الآمال ، وغلب يأس الجمهور على الرجاء ، وآخرون متحيرون يقولون ماعدا مما بدا ؟ وهل لمصر من موسى يأتيها بخبر او يجد على هذه النار هدى ؟ وقد يعجبون لقول مثلي بعد هذا التفرق الذي اشرب العداء ، ولم يسلم من الهجر والبغضاء ، على أكابر الزعماء والرؤساء : ان الوحدة المصرية حقيقية ، ولم تكن خدعة صورية ، نعم انني قلت ماقلت على علم ، وانني اثبت رأيي بالدليل :

لا تتمحص الحقائق الا بدخولها في جميع الاطوار التي من شأنها التطور بها فما ظهر من التفرق والانقسام في الوحدة المصرية التي أكبرها العالم مدة سنتين يشبه ما كان من اكبار العالم للانقلاب العثماني الذي هتفت له الشعوب العثمانية على اختلاف مللها ونحلها ، ولغاتها وتربيتها ، وتماثلت وتآخت

لاجل تنفيذ قانونه ، ثم لم تلبث جمعية الاتحاد والترقي التي احدثته ان هدمته بيدها ، وكذلك هدم الوفد المصري ما حدث على يديه من الوحدة المصرية واجتماع الكلمة عند تهي رئيسه وثلاثة من أعضائه المؤسسين الى مالطة ـ ثم عند اطلاقهم من اعتقالهم ـ ثم في مقاطعة لجنة لورد ملنر واجماع الامة على ردها الى الوفد المصري ـ ثم في استقبال لجنة الوفد التي جاءت لاستشارة الامة في تقرير لورد ملنر ـ ثم في استقبال الرئيس سعد باشا زغلول بحفاوة عامة اشترك فيها القطر المصري من أدناه الى أقصاه باحتفالات وزينات وخطب وقصائد ومآدب لم يسبق لها نظير . ولم يبق أحد يجهل ان اتحاد الامم هو أعظم قوة لها تقبلها خسائر القوى اذا ثبتت ، وينتكث فتل كل ما يوجد منها اذا نكثت ، فاسبب هذا التفرق بعد ظهور ثمرة الاجتماع بجنوح بريطانية العظمى الى استمالة مصر وارضائها برفع الحماية عنها والاعتراف بالاستقلال لها ، مقيدا ذلك بقيود تحفظ بها مصالحها ؟

موضوع الاتفاق وسبب الافتراق

(١١) ان ما كان من الوحدة والاتفاق كان على أمر مجمل توجه اليه استعداد جميع طبقات الشعب وهذا التفرق لم يزده الا قوة ولكن الشعب (لما اتفق على طلب الاستقلال التام كان أهل الرأي منه يعلمون أن الكمال يقصد في أول السعي وقلما ينال الا في آخره . وان المسافة بين الاول والآخر في اعمال الامم قد تكون قريبة تحسب بالسنين وقد تكون بطيئة تعد بالاحقاب ، ومنهم من كان يرى مع هذا أن كل ما يؤخذ من الغاصب فهو ربح ، ومن يرى ان أخذ بعض المغصوب قد يتضمن الاعتراف للغاصب بالبعض الآخر فالواجب الانتظار لاخذ الحق كله ولو بعد حين ـ فكان هذا خلافا يداخل الاتفاق وان لم يذكر في الوقت الذي لم يظهر من الغاصب فيه جنوح ما الى الاعتراف بشيء من الحق لصاحبه ، دع الوعد ببذله كله او بعضه ، فلما أمر سعي الوفد بقوة وحدة الامة التي تؤيده جنح الانكليز لارضاء المصريين بالاعتراف لهم بحقهم في ادارة بلادهم واستقلالهم فيها (بشرط اعترافهم هم لبريطانية العظمى بمركز ما في البلاد تحفظ به مصالحها ومنافعها اوربة بما اكتسبته من الاهلية لهذا الامتياز بالاحتلال الطويل الذي خدمت البلاد فيه ورقت موارد الثروة فيها وتغير ذلك مما تدعيه سواء كان حقا أم لا) ودعي الوفد المصري من باريس

الى لندن لاجل المفاوضة في التقرير الذي وضعه لورد ملنر وزير المستعمرات البريطانية لحل اشكال القضية المصرية — لما كان ذلك — ظهر في المسرح عدلي باشا يكن أحد أركان الوزارة الرشدية التي استقالت في سبيل تأييد الوفد فكان وسيطا بين الوفد ولجنة ملنر التي فوضت الحكومة البريطانية اليها أمر المفاوضة وسبر غور الوفد — وظهرت بتلك الوساطة مبادئ الخلاف الكامن الذي أشرنا اليه ،وانتهى بالتفرق والشقاق الذي نشكو منه ، فانه شيء جديد، الا وله أصل تليد ، كان يتخايل بذور الاستقلال المطلق بذور الاستقلال المقيد بقيد الامبراطورية فنبت ذلك اولا في مصر ونبت هذه بعده في أوربة ثم في مصر ، فكان كالرئوان بين القمح

لقد فتن الجمهور المصري تبعا لوفده بمشروع ملنر ويعد طول البحث فيه والتمحيص له استقر رأي سعد باشا على أنه «حماية مقنعة» الغرض منه جعل مركز الغاصب المبطل شرعيا بقبول الامة المصرية هذه الحماية المقنعة — ورأى عدلي باشا أنه مشروع جدير بأن يبنى عليه الاتفاق بين انكلترة ومصر وانه يمكن تعديل بعض ما يشتد سعد باشا في انكاره منه — وكان سعد باشا يرى عدم المفاوضة في هذا المشروع — ثم رأى بعد مفاوضة لجنة ملنر التي استدرج اليها انه لا يجوز جعله أصلا للاتفاق بين مصر وانكلترة ولا أساسا للمفاوضات الرسمية الا اذا ألغيت الحماية وقبلت التحفظات التي وضعها الوفد بعد مشاورة الامة والاطلاع على رأيها . واشتد النزاع بينه وبين ملنر مرارا حتى هم بقطع المفاوضات وكان عدلي باشا يعيد المياه الى مجاريها بلطفه وكياسته فأرضى بذلك الانكليز وعلقوا آمالهم به وأغضب سعد باشا ، وسعد شديد الشكيمة حديد المزاج اذا غضب جرح فأدمى ، وعدلي باشا رقيق الطبع من أبعد الناس عن الشمائل والخصام ، ولكن مال اليه بعض اعضاء الوفد وآثروه على رئيسهم في شخصه وفي طريقته ، فاجتهدوا أولا في التأليف بينهما ، ولولا ذلك لظهر ما نجم من الشقاق بينهما في أوربة . على ان سعد باشا انبأ لجنة الوفد بمصر ببرقية من باريس بأن عدلي باشا مشاق للوفد فلم تنشر ذلك اللجنة وتدارك ذلك الاعضاء هنالك فاصلحوا بينهما اصلاحا التزم فيه عدلي بألا يعمل عملا الا بالاتفاق مع الوفد . وحمل سعدا على كتابة برقية تنسخ البرقية الاولى فنشرت هذه دون تلك . ويقال انهم أقنعوا سعدا بأن يؤلف عدلي وزارة تتولى المفاوضة

مع انكلترة ويكون الوفد بالمرصاد لما يقرره الفريقان فان كان مرضيا أيده والا استأنف جهاده وسعيه

ثم ظهر الخلاف بين سعد والمشايعين لعدلي من أعضاء وفده فغادره خمسة منهم وعادوا الى مصر فسبقهم اليها نبأ منه بمخالفتهم له فاستقبلهم جند الوطنية من الشبان اسوأ استقبال منذ بلغوا مرفأ الاسكندرية الى أن آووا الى بيوتهم واسمعوهم اذى كثيرا مشوبا بالوعيد والنذر، وأخذوا منهم كتابا بأنهم على رأي الرئيس ومعه ، ولكن لم يمنعهم ذلك من بث الدعوة لعدلي باشا والطعن في سعد باشا والتنفير والصد عنه وكان منهم الغالي والمعتدل في ذلك

الوزارة العدلية

(١٢) من القضايا التي صارت معروفة للجمهور ومسلمة بين الخصوم أنه لما كان الوفد المصري وعدلي باشا في لندن تقرر لدى الحكومة البريطانية ان يؤلف عدلي باشا بعد عودته الى مصر وزارة تتولى المفاوضة الرسمية وعقد الاتفاق بين بريطانية العظمى ومصر على أساس تقرير ملنر بشرط الغاء الحماية فقط ، والشائع ان أعضاء الوفد الذين تحولوا ثمة عن سعد الى مشايعة عدلي قد تواطؤا معه هنالك على تأييد الوفد له اما بجذب سعد اليهم واما بنبذه بأكثر الآراء ، ولولا هذا التواطؤ لم يقبل عدلي باشا ان يدخل في هذه المعمعة وينقض عهده فانه رجل شديد الاحتياط في حفظ كرامته وشرفه واتقاء القيل والقال، دع الاستهداف للطعن والنضال، وانهم حاولوا هذا هنا فلما لم يستطيعوا اليه سبيلا تحيزوا الى عدلي جهاراً ، واننا نلخص خبر الوزارة بموجز من القول

سبق ان ذكرنا في المنار الصفة الرسمية لتأليف الوزارة وانها كانت بسبب البلاغ البريطاني لعظمة السلطان في شأن المفاوضة باستبدال علاقة أخرى بالحماية البريطانية على مصر تربطها بالامبراطورية وقد اشتهر ان السلطان كان يرغب ان تتولى وزارة محمد توفيق باشا نسيم ذلك لانها كانت احظى الوزارات عنده ولما استقالت لاجل هذا العمل عهد الى محمد مظلوم باشا بتأليف الوزارة المطلوبة فلم يمكن ، ويقال انه ذكر غيره ثم علم أنه لا يمكن ان يقوم بهذا الامر الا عدلي باشا

ولما ألف عدلي باشا الوزارة ذكر في جوابه عن الامر السلطاني بتأليفها خطتها السياسية الناطقة انها « ستجعل نصب عينيها في المهمة السياسية التي

ستقوم بها لتحديد العلاقات الجديدة بين بريطانية العظمى وبين مصر الوصول الى اتفاق لايجعل محلا للشك في استقلال مصر . وستجري في هذه المهمة متشبعة بما تتوق اليه البلاد ومسترشدة بما رسمته ارادة الامة وستدعو الوفد المصري الذي يرأسه سعد باشا زغلول الى الاشتراك في العمل لتحقيق هذا الغرض»

وقع هذا القول على ابهام عبارته واضطرابها (١) أحسن موقع من الامة فان آمالها كانت محصورة في الوفد الذي ينطق باسمها فرأت أنه قد وجدت في البلاد حكومة تؤيد الوفد وتعمل معه فأصبحت الامة والحكومة كلمة واحدة ويدا واحدة بعد ان كانت الحكومة خصما للامة منذ تمكن الاحتلال الانكليزي وأنشب براثنه فيها الى هذا العهد، لاجل هذا صفقت الامة لهذه الوزارة وقابلتها بمظاهرات الثقة بها والهتاف لها مع الهتاف للوفد ولرئيسه سعد باشا

التفرق والشقاق بين المصريين

(١٣) ثم ان الوزارة آذنت سعد باشا - وهو في باريس - بتأليفها وخطتها وطلبت منه الحضور الى مصر للتعاون معها على العمل فبادر فقابلته الامة من أعلى طبقاتها الى أدناها في جميع البلاد من أدناها الى أقصاها ، بمظاهر من الحفاوة والتكريم ، لم يسبق لها شبه ولا نظير ، فكانت الامة كالمجمعة على ما قامت به جميع هيئاتها النظامية المنتخبة وسائر ممثليها من تكريمه واعلان الثقة به في المحافل العامة والمآدب الخاصة ، ولكن هذا الاجماع لم يكن تاما ولا سالما من الشذوذ الخفي بل كان بعض أعضاء الوفد الذين خرجوا من أوربة مغاضبين وبعض الحاسدين الذين زادهم ما رأوا حسدا يخفون في أنفسهم مالا يبدون للناس فما تعذر التوفيق بين الوفد والوزارة أو بين رئيسيهما ظهر ما كان خفيا وصار أعضاء الوفد المغاضبون لرئيسهم يتسللون من (بيت الامة) (٢) لواذا ، وينفضون الى الوزارة ثبات وافرادا ، ثم استمالوا هم والوزارة اليهم آخرين منهم ، وحمي

(١) ان نفي ايجاد محل للشك في الاستقلال في الاتفاق لايقتضي ان يكون اتفاقا على الاستقلال التام المطلوب فانه نفي بينه وبين استقلال مبهم ثلاث مراتب - الجعل والمحل والشك - فاذا كان الاتفاق على ان تكون مصر كبعض امارات الهند أو الجزائر التي تسمى مستعمرات مستقلة فانه يصدق عليه ماذكر والاسترشاد بما رسمته ارادة الامة لايقتضي اتباع ادارتها وعدم تجاوزه

(٢) بيت الامة لقب وضع لدار سعد باشا زغلول

وطيس الخلاف والجدل ؛ وصرح رئيس الوفد بعدم الثقة بتولي الوزارة للمفاوضة مع الحكومة الانكليزية والاتفاق معها على مستقبل مصر، فعارضته الوزارة وقاومته بكل مالدى الحكومة من حول وقوة ؛ تظاهرها في ذلك السلطة المحتلة، ومن ورائها الامة البريطانية بحكومتها وجرائدها، وبالمال من قوى هائلة تستغيث من هولها الامم ، وتخشى صولتها كبرى الدول ؛ فظهر بذلك صدق ماقيل من انه قد تقرر في انكلترة ان يتولى عدلي باشا الوزارة ويؤيده الوفد ثم يكون هو الذي يعقد الاتفاق بين بريطانية العظمى ومصر على قواعد تقرير ملنر بشرط الغاء الحماية واستبدال علاقة بريطانية أخرى بها

فوقع بذلك الشقاق في الامة ؛ وانشقت عصا تلك الوحدة التي ليس لمصر من دونها حول ولا قوة ؛ فكان هذا أول طلائع الظفر البريطاني الذي يغالب جميع الخطوب بالصبر والجلد ، مع الدأب في العمل

وقل من جد في أمر يحاوله واستعمل الصبر الا فاز بالظفر

فيم كان هذا الشقاق الذي شوه تلك السمعة الشريفة التي نالتها مصر في العالم كله بوحدتها واتفاق كلمتها مدة عامين ؟ هل هو شقاق في المذهب السياسي ام تنازع على الزعامة والرياسة بين الافراد وانتصار كل فريق لزعيم لتفضيله اياه في الزعامة للمصلحة العامة او المنفعة الخاصة؟ ومن المذنب المسئول؟ وأي الطرفين هو الظافر وأيهم المغبون؟

موضوع الشقاق وزعماه

(١٤) من القضايا التي صارت مبرونة لكل أحد ان وحدة الامة المصرية التي كان يمثلها سعد باشا زغلول رئيس الوفد المصري قد انصدعت فصارت الامة في طريقها السلمي الى استقلالها فريقين — وأن زعيم الفريق الاكبر او الاكثر هو سعد باشا ويعبر عن افراد حزبه بالسعديين، وان زعيم الفريق الاصغر أو الاقل هو عدلي باشا ويعبر عن أفراد حزبه بالعدليين، وان كل قوة سعد مستمدة من الامة، وان جل قوة عدلي مستمدة من الحكومة المصرية التي هو رئيسها والسلطة البريطانية الموجدة لهذه الحكومة — وان هذا الصدع قد كان من قبل الزعماء الذين أسسوا بناء الوحدة بما كان من استعداد الامة له ومن زعماء هذه الوزارة وزعماء الوفد الذي تأسس بمساعدتها بما وقع من الخلاف بينهم فهم المسؤولون — وان التنازع على رئاسة الوفد الرسمي الذي يتولى عقد الاتفاق

بين بريطانية العظمى ومصر اذا أمكن قد كان من أسباب هذا الخلاف

هذه قضايا لا مراء فيها والمدليون يتهمون سعدا بأنه لا عذر له في الامتناع من تأييد الوزارة الا حب الرئاسة وقد اذاع كتابهم في جرائدهم وغيرها أن المسألة شخصية، وهذا عار كبير على الامة بأسرها . وسعد باشا يحتج بأنه يجب ان يكون هو الرئيس للوفد الرسمي لانه هو الممثل للامة التي وعدت الحكومة باتباع ارادتها في قضيتها السياسية والوزارة الحاضرة ليست الا وزارة الحماية الانكليزية فهي مظهر السلطة البريطانية فاذا كانت هي التي تتولى ادارة المفاوضة ثم الاتفاق مع بريطانية فكأن ملك الانكليز هو الذي يتفق مع نفسه، وأن ما تعتذر به الوزارة أو تحتج به على ما تحرص عليه من جعل رئاسة الوفد الرسمي لرئيسها — وهو ان التقاليد المتبعة في جميع الدول ان رئيس الحكومة هو الذي يرأس كل جماعة رسمية يكون فيها وهو الذي يعقد المحالفات والاتفاقات مع الحكومات الاخرى — عذر باطل وحجة داحضة فان ما ذكروه من تقاليد الحكومات المستقلة النيابية التي يمثل رئيسها الحكومة والامة جميعا اذ لا يكون رئيسا لها الا بتأييد مجلس نوابها الممثل للامة ، وهذا مبين لحال الوزارة المصرية

ويقول المدليون ان الوزارة أجابت سعد باشا الى جميع ما اشترطه لتأييد الوفد لها الا مسألة الرياسة فيها يكن له من حجة على طلب هذه الرياسة لنفسه، فليس له أن يوقع الشقاق في الامة لاجله، وناهيك بقبول كون أكثر أعضاء الوفد الرسمي من أعضاء وفد الامة الذين يختارهم رئيسه وكون الثقة بشخص عدلي باشا لا نزاع فيها — وسعد باشا وحزبه يردون هذا القول بكلام لم ينشروه كله في الجرائد فيذكرون اجابة ما عدا شرط الرياسة من شروط الوفد فقد كان أهم الشروط اصدار المرسوم السلطاني ناطقا بتحديد الاساس الذي تجري فيه المفاوضة على ما يتفق مع مطالب الامة ومبادئ الوفد كالنص على إلغاء الحماية البريطانية على مصر حتى امام الدول الاجنبية وعلى الاستقلال الدولي التام المطلق في الداخل والخارج ، ويليه شرط إلغاء الحكومة العرفية والرقابة على الصحف لتكون الامة وصحفها حرة في أقوالها وافعالها لا مسيطر عليها في ابداء رأيها الا القانون، فلم يتقدمي من ذلك —

ويقولون أيضا ان الرئيس لم تبق له ثقة باقتدار عدلي باشا على تحقيق مقصد الامة المصرية بعد ان تمحصت قضيتها لانه يرضى بدون ما ترضاه، ولا ثقة له بأعضاء الوفد المتحيزين اليه فهذا كله مما كتب. وهو يفيد أنه لم يعد اشتراط كون أكثرية الوفد الرسمي من أعضاء الوفد غير الرسمي مفيدا ، فاذا ألف عدلي الوفد الرسمي لجعل ثلثهم من رجال الحكومة الذين على رأيه والثلثين من أعضاء الوفد غير الرسمي وكان نصفهم من المتحيزين اليه تكون بيده الا كثرية الساحقة ، واذا كان مع هذا هو الرئيس الذي يتولى ادارة المفاوضة فلا يبقى لرأي سعد باشا معه تأثير — فلهذا اشترط ان يكون هو الرئيس للوفد الرسمي لا لمجرد حب الرياسة فانه ليس فوق ما خولته إياه الامة من الزعامة فيها والرياسة لها غاية تطلب

واظهر حجة لبعض المدليين ، رضيها بعض المعتدلين ، هي ان الوفد الرسمي الذي ترضى بريطانية العظمى أن تتفق معه لابد أن يكون من قبل عظمة السلطان فاذا جاز ان يرسم السلطان لغير رئيس حكومته بتأليفه فلا يجوز ان يجعل سعد باشا هو الرئيس له اذ لا صلة بينه وبينه يعرف بها رأيه وفكره ودرجة اخلاصه له وهؤلاء ينكرون على سعد باشا عدم زيارته للسلطان عقب عودته ، وهو يعلم أيضا ان الحكومة البريطانية لا ترضى برئاسة سعد باشا — فاذا كان الامر كذلك فلا ينبغي لسعد باشا ان يوجه كل نفوذه في الامة الى منع ما اتفقت عليه الحكومتان بمحاولة اسقاط عدلي باشا والجائه الى استعمال نفوذ حزبه ونفوذ الحكومة الى جزائه على عمله بمثله الذي ادى الى شق عصا الوحدة وخسارته بل خسارة البلاد ما كان من اجماع الامة على زعيم واحد وهو هو (سعد باشا) وكان يكفيه الا يؤيده ولا يشاركه في المفاوضة ويقف له ولوفده الرسمي بالمرصاد فان جاء بالاستقلال التام الذي يرضاه هو والامة لم يكن عليه أدنى غضاضة في قبول ذلك وتوجيه نفوذ زعامته الى النهوض باعباء هذا الاستقلال الذي يشهد الجميع بأنه كان حجر الزاوية له ، وان وقع الاتفاق الرسمي باسم من كان هو نا له لا خصما . وان جاء بحماية مقنعة او استقلال صوري مقيد بقيود الامبراطورية البريطانية ومغلل باغلالها فليحمل عليه بحمل الامة على رد هذا الاتفاق وعدم التصديق عليه ، فاذا لم ينفذ الاتفاق حينئذ

نكون باقين في موقفنا بل أقوى مما كنا بعد اعتراف انكلترة لنا بما اعترفت به ، واذا نفذ نكون قد ربحنا ما تركته لنا من حقوقنا من حيث لم تتقيد الامة بالاعتراف لها بشيء باثباتنا حينئذ ان الوفد الرسمي المفاوض لا يمثل الامة أولم تقره الامة على ما عقده

والمعديون يردون على هؤلاء بأنهم موقنون بأن عدلي لا يأتي الا بالحماية المقنعة وبأن السكوت او ترك المعارضة يفضي الى نجاح الوزارة في اغتصاب الثقة بها من الامة بنفوذ الحكومة المعزز بالرجال والمال ثم الى التصديق على ما تتعاقد عليه مع الحكومة البريطانية فاذا اجتمعت القوتان على ادعاء هذا التصديق والاقرار له وكونه مبنيا على تلك الثقة والتفويض فاذا تفعل الامة الضعيفة بعد ذلك — فهذه صفوة حجج الفريقين في جوهر الموضوع وموضع النزاع وما نحن لما هدا ذلك من المراء والجدل بناظرين

الموازنة بين الرئيسين

(١٥) عدلي باشا يكن — رجل عزيز النفس كريم النجيزة مهذب الاخلاق رفيق الطبع أبي مترفع في غير كبرياء ، مبالغ في حفظ كرامة نفسه ، مع المراعاة لكرامة معاشره وجليسه ، واسع الحلم ، نزيه النفس واللسان ، قليل الكلام ، وهو كبير بيت يكن الذي هو أكبر بيوتات السلائل التركية في مصر بل هو البيت الاول بعد بيت الامارة ممن تولوا الاحكام والمناصب العالية — وهو كبير في نفسه كما أنه كبير في بيته ، حريص على حفظ شرفه — فهو بهذه الصفات جدير بمنصب السفارة والوزارة وبرئاسة الوزراء ، وقد أوتي من العلم العصري ما يحتاج اليه المنصب وقلما يوجد بمصر من يفسر كبراء الافرنج حتى الانكليز منهم على احترامه مثله ، بل هو قوي الشبه بكبراء الانكليز في ترفعه وآدابه وشمائله

ولكنه لم يؤت من طلاقة اللسان في الخطابة ، ومن بلاغة القول في الكتابة ، ومن الاقدام على مكافحة الخطوب ومصارعة الاخطار ما يؤهله لزعامة الامة أو التأثير فيها والسير بها في سبل الارتقاء الاجتماعي ، ولا لقيادتها في ميادين الجهاد السياسي ، بل هو غير مستعد للتصدي لاحداث أدنى تأثير في الامة بنفسه ، وانما لولا المناصب العالية التي تولاها — كادارة الاوقاف العامة ورئاسة المحاكم

والوزارة — لما كان يعرفه الا القليل من طبقات الامة الوسطى دع الدنيا ، وهو لا يعرفهم بالأولى

سعد باشا زغلول — هو رجل من بيت وسط من مديرية الغربية عربي السلالة — كما أخبرني صديقي المرحوم عبد الرحمن زغلول ابن أخي سعد باشا — طلب في حداثته العلم في الازهر وكان من حسن الحظ ان اتصل في أثناء ذلك بالاستاذ الامام وتلقى عنه وعاشره زمنا تخرج به فهو استاذه الاول ومربيه على ما خلق مستعدا له من الاستقلال في الرأي والفهم وقوة الارادة والشجاعة وصناعة الحجة وحب الحق ، وادرك أيام موقظ الشرق ومصلح مصر السيد جمال الدين الافغاني وحضر بعض أنديته وسماره ، ولما تولى الاستاذ الامام ادارة المطبوعات ورياسة تحرير الجريدة الرسمية (الوقائع المصرية) جعله محررا في القسم الادبي الاصلاحي الذي زاده فيها قدرة على الكتابة في المسائل الاجتماعية والسياسية والادبية والاقتصادية واطلع على جميع شؤون الحكومة ، فان ادارة المطبوعات كانت في ذلك العهد مسيطرة على الجرائد وسائر المطبوعات ومراقبة على الحكومة تنتقد جميع اعمالها في جميع فروعها — ، وفي اثناء ذلك حدثت الثورة العرابية — فهو قد نشأ وترعرع وشب في حجر العلم والسياسة والانقلاب الفكري والاجتماعي والسياسي

ثم اشتغل بالمحاماة والتزم فيها جانب الحق فكان لا يقبل الوكالة في دعوى يرى ان صاحبها مبطل ، فبرع في الخطابة واقامة الحجة والاطلاع على القوانين والخبرة بشؤون الناس واخلاقهم ومعايشهم وحيلها ثم صار قاضيا في أعلى مناصب القضاء الاهلي فاشتهر بدقته في التحقيق واستقلاله في الرأي وعدله في الاحكام حتى شهد له مستشارو الاستئناف من الاجانب والوطنيين كتابة بأنه رقى المحاماة وشرف القضاء بعدله واستقلاله. وهي شهادة لم ينلها فيما نعلم أحد من صنفه ، ثم صار وزيرا للمعارف ثم وزيرا للحقانية ثم وكيلا منتخبا للجمعية التشريعية

وكان في كل منصب من هذه المناصب الكفؤ الكريم والممتاز بين أهله فيه ، ولا نعرف أحدا في وطنه يشاركه في هذه المجموعة من المزايا بل قل ان يوجد له ند يضارعه في فرد من أفرادها — فهو بها أجدر افراد هذه الامة بزعامتها الاجتماعية والسياسية

الا أنه ينقصه من صفات الزعماء السياسيين — كما يقولون — ما يسمونه المرونة السياسية وهي تشمل سعة الصدر والحلم والمداراة والتمويه والخداع وان شئت قلت والبراعة في الافك والكذب الذي يحتمل التأويلات الكثيرة والتملق والبراعة في الاستمالة والتزلف عند الحاجة. وهو لقلة ملكة القضاء على كل ملكاته لا يستطيع كل ذلك ولو تكلفه فهو لا يبالي بمن خالفه فيما يعتقد ولا يحفل بعداوته له مهما يكن عظيما. وقد كان الاستاذ الامام يقول ان سعدا خلق ليكون قاضيا، ووصف سيرته في القضاء واستقصاءه فيه للدلائل ودقته في الاستنباط وحرصه على العدل. وخصومه يسمون هذه الملكة غلاظة وكبرا أو يطلقون أمثال هذه النعوت على بعض لوازمها.

وقد زادوا في هذه الايام في نعته انه مستبد لا يخضع للشورى فهو يعمل باسم الوفد ما يراه وان خالف قرار الاكثرين. وهذا خلاف ما نعرف فيه ونعهد منه، فاذا أردنا انصاف القائلين بهذا يحمل كلامهم على الصدق ولا سيما فيما ينقلونه من الوقائع المعينة فلا نرى جامعا يجمع بينه و بين ماهو معروف عنه من الانصاف والاستقلال ومعرفة قيمة النظام ومراعاة القوانين الا ماحدث في الوفد من الشقاق واختلاف النيات والا فان مثل سعد لا يخفى عليه أن شعبه الذي يفتخر بحق بارتقائه وأهليته لتولي أمور نفسه بنفسه في حكم دستوري لا يمكن أن يقبل في عمل من أعماله رئيسا مستبدا لا يجري على نظام الشورى ولا متكبرا لا يحترم آراء من معه وان هذان الخلقان لا يخفيان على أحد

على اننا قد سمعنا بآذاننا وسمع الجماهير مثلنا خطبه في المحافل والمجامع العظيمة وقرأها أكثر ممن سمعوها فهم يشهدون بأنه كان يعزو فيها كل عمل الى أعضاء الوفد ويذكرهم بمنتهى الادب والاحترام ويقدمهم احيانا على نفسه، وعلمنا انه زار من لم يزره ممن عادوا من أوربة قبله مناضبين له مع العلم بأنه كان أشدهم زراية عليه وصدا عنه، وفضله على نفسه في احدى خطب المجامع الحافلة. ولم يكن هذا يجاذبه لذلك العضو الى الوفاق بل لم يزده الا حقدا وضغنا، واعراضا وطامنا

الحكم في الشقاق بين أعضاء الوفد ورئيسه

(١٦) اني أعرف بعض أعضاء الوفد المصري معرفة صحبة وموادة، وأعرف بعضهم

معرفة مواجهة ومحاولة، وأجهل حال غير المشهورين منهم جهالة تامة، فأنا احكم بصدق الوطنية لبعضهم على علم وخبر، واحكم به للآخرين على قاعدتي أصل البراءة وحسن الظن، وقد سمعت ما قاله المخالفون على رئيسهم سعد باشا وقرأت ما كتبوا — فرأيت انهم قد اخطأوا في اجتهادهم، حتى على تسليم جميع أقوالهم، فكيف اذا كان القول الوسط المعقول في هذا الاختلاف هو القول في كل اختلاف بين فريقين في أمر من الامور العامة والمصالح السياسية والمسائل الاجتهادية التي تختلف فيها الآراء والانظار، وهو ان يكون كل فريق مخطئا في بعض ما اختلفوا فيه ومصيبا في بعض، فان جاز عقلا ان يكون أحدهما مصيبا في كل ما خالف فيه الآخر — فأي الفريقين هنا أجدر بأن يحكم له بالصواب؟ أالفريق الذي يخطئه السواد الاعظم من الامة بعد معرفة كل ما أدلى به من الحجج وما أدلى به خصمه؟ ولا يؤيده الا نفر قليل جدا! أكثرهم من أصدقاء افراده او من اتباع أصحاب المصلحة منهم؟ أم الفريق الذي يؤيده السواد الاعظم ويرمي مخالفيه بأشنع التهم وينبزهم بأفظع الالقاب؟

أقول ان المؤيدين لاعضاء الوفد الذين شاقوا الرئيس نفر قليل جدا في مجموع الامة مع العلم بأن الذين أيدوا الوزارة العدلية كثيرون جدا، فان الذين أيدوا الوزارة لا يؤيد جميعهم ولا أكثرهم أعضاء الوفد المشايعين لها، بل أكثرهم يرى ان سعد باشا هو زعيم الامة بحق وانه هو المرجع الذي يعول عليه ضد تحكيم الامة فيما يأتي به وفد الحكومة الرسمي من الاتفاق مع الحكومة البريطانية، ولئن كان المشاقون لسعد أول من أيد عدلي ويعتقد أهل الرأي انه لولاهم لما كان ما كان — فان المؤيدين له بعد ان أصر على السير في القضية بدون اتفاق مع سعد والوفد انما أيده اكثرهم بنفوذ الحكومة لا بنفوذهم لا ما الاعضاء — فهم قد نزلوا بمشاقتهم لسعد عن مقام الزعامة العامة في الامة الى أدنى مما كانوا عليه قبلها فان كانوا تركوا سعدا لحفظ كرامتهم الشخصية التي تقلو عنه أنه لم يكن يعطيها حقها، ولتأييد المصلحة العامة التي قالوا انهم رأوه باستبداده غير أهل لها — فقد كانت خسارتهم الشخصية بهذا الترك أعظم، وصاروا عن القيام بخدمة المصلحة العامة أعجز — فهذا هو وجه تخطئتي لاجتهادهم حتى على تقدير تسليم جميع أقوالهم، وانما اكتب هذا لاجل التذكير وبيان وجه العبرة لمن يعتبر من

عقلاء أمتنا بما كان من اغلاط الزعماء والعلماء بالمصلحة العامة فيما نستقبله من حياتنا السياسية التي لا نزال فيها اطفالا بالنسبة الى الامم التي طال عهدهم بالتمرس بأعمالها والجهاد في ميادينها.

يقولون ان العمل معه صار متعذرا. فان لم نقل ان المتبادر انه صار متعذرا بعد المشاقة اذ كان متيسرا قبلها: قلنا ان الاخلاص في العمل للامة والحرص على وحدتها لا يمكن أن يكون بغير جهاد شاق، وصبر واحتمال وايثار، وقد قيل في المثل: ان صح منك الهوى ارشدت الحيل. فعلى هذا لم يكن من المتعذر ان يقف بعضهم بعضا بالمناصحة والتظاهر على الرئيس — وهم معه — فيما يرونه منه خللا بكرامة بعضهم، أو الاستبداد بالامر دونهم، كما تظاهروا عليه في الانتقاد الصريح في الجرائد والخروج من الوفد، فان كانوا توهموا انه كان المكن اسقاطه واستبداله فيخيبه قبل مجيئه من أوربة وما قابلته به جميع طبقات الامة من أدنى البلاد الى أقصاها من الحفاوة والبر الذي كاد يكون من العبادة، فوقوع هذا التوهم بعد ذلك كله من أغرب الخطأ ولا سيما من هؤلاء الاذكياء العلماء بأخلاق الامم وسنن الاجتماع.

لقد كان زعماء جمعية الاتحاد والترقي الذين شبهناهم بهم في أول المقال أهدى سبيلا منهم في المحافظة على زعامتهم ونفوذ جماعتهم في الدولة والامة، فقد كان ينكر بعضهم على بعض فيفاوضون في الانكار، ولكن لم يكن ذلك ليتعدى أنديتهم سرا لا يفرق جماعتهم، وبذلك كان لهم الفوز على جميع الاحزاب المناوئة لهم على قوتها، والوفد المصري لم يكن له في الامة خصوم يعتدون به ويخشى عليه منهم، حتى كانوا هم الذين شقوا عصاهم بأيديهم، وسنجد ألوفا من العاذلين لنا على هذه الطريقة — ولا تتسامى الى منصب القضاء فتقول هذه الرأفة — الرأفة في الحكم عليهم، أولئك الذين يتهمونهم بأنهم قصدوا بذلك لخدمة أنفسهم، وما نحن لهذه التهمة بشارحين، لانا نكتب الوعظ والارشاد، لا لننحاز الى الزعماء والتحزب للاحزاب.

مكانة الزعامة في الامة ومكان سعد منها

(١٦) ان اجتماع كلمة السواد الاعظم من الامة على زعيم يمثلها ليس من الملكات الممتازة، ولا من المقاصد التي تنال بسعي الافراد او الجماعات، الا بمساعدة الزمان

بوقائعه وأحداثه وإشعاره الامة بمعنى الزعامة والحاجة اليها ، واعداده لزعيم الكفوء للنهوض بها ، وتمثيل وحدتها فيما استعدت له وتوجهت اليه ، فاذا وفقت الامة لثقة بزعيم كفوء للزعامة وجب على جميع أهل الرأي والمكانة فيها أن يؤيدوه في العمل ، ويقيلوا عثرته اذا عثر ، ويقوموا عوجه اذا زاغ وانحرف ، وان لا يشترطوا في المحافظة على زعامته العصمة ، فان الكمال المطلق لله وحده ، فبذلك يرجى نفعه ، ويؤمن شر خطاه وضعفه ، ولا يحل لهم ان يؤاخذوه على ما ينقمون منه بخذله ولا بالطعن في كفاءته لما يعقب ذلك من تنكيث قوى الوحدة ، وصدع بناء الزعامة ، ورب تنكيث يتعذر ابرامه ، ورب صدع لا يرجى التئامه ،

وقد سبق القول بأن زعامة سعد كانت بالاكثرية الساحقة من السواد الاعظم ، ولم تكن اجماعا سالما من الشذوذ كما كان يتوهم ، لان اجماع الامة التام على رجل واحد في الظاهر والباطن محال في سنن الاجتماع وأخلاق البشر ، وقد رأينا ان مظاهرات الحفاوة بقدوم سعد كانت تحجب عن الابصار ما على بعض الوجوه من وجوم واكتئاب ، وأن صيحات الهتاف له كانت تشغل الآذان عما يتفات من الالسنة من هينمة إنكار ، بل كان يتخلل تلك الحفلات ، ما يشير الى ما سيكون بعدها من الحملات ، وقد سمعت في بعض المظاهرات اعتراضات فلسفية عليها ، وشهدت احتفالين أقاموا جيرانا وجهاء مصر القديمة صرح في أكبرهما بما أختصره وان كان من لباب الموضوع :

وذهبت الى الخطابة في هذا الاحتفال فأبيت لزهدي في الظهور على مثل هذه المنابر التي يتزاحم عليها طلاب الشهرة ، ورغبتي عن الكلام في السياسة في محافل أكثر شهودها من العامة ، وعجزي عن الاطراء ، الذي يألفه الجمهور في هذا المقام ، وكان من الخطباء فيه القس مرجيوس خطيب قصور الاقباط المشهور ، فالمسجع الخطباء والشعراء الذين أخلصوا المدح والاطراء للرئيس سعد باشا بما جاء به من للزبج وأمشاج القول المتضمن لتوقع الخلاف بين سعد وعدلي ووصف سعد بالسداد والصلابة والاشارة الى علاج ما يتوقع فارتأى ان تقتدي فيه الامة المصرية بتجربة (الفلبكان) عند انتخاب البابا وهي أن الكردنيالات الذين لهم حق الانتخاب يحبسون في حجرة يوضع لهم فيها قوت قليل ولا يسمح لهم بالخروج منها

لا بد الاتفاق على انتخاب أحد المرشحين

ولما سمعت خطابه آذنت الذين كانوا يراجعوني في اقتراح إلقاء شيء في المفلة بأني قبلت فذهبت فصعدت المنبر وألقيت خطابا بينت فيه تحقق تكوين الزمان للامة المصرية بالعصبية القومية ، وان اتحاد الكثرة انما يحصل اذا مثلها جهة واحدة ، وهي التي يسمونها الزعامة والرياسة ، ومتى تكونت الامة وشعرت بفقدها لهذا هذا الشعور الى الزعيم الذي يمثلها ، كما ينبت الرأس في الجنين عند تمام تكوين أعضائه ولم ينشأ في الامة من رجال جديرين بالزعامة ولا تعرف الامة قيمتهم ولا أنها ليست أمة الا بالصورة الظاهرة كما تسمى صورة الاسد في الورق أو الجدار أسدا . وقد كان الاستاذ الامام يقول يا ويح الرجل الذي ليس له أمة ، ولا يعقل ان توجد أمة راشدة لا يوجد فيها رجل بل رجال حقيقيون بالزعامة فيها . وقد كان الاستاذ الامام من الرجال الذين يقل في الامم الراقية أمثالهم ، بل قال فيه الاستاذ الدكتور براون من أكبر علماء الانكليز المدرسين في احدى جامعاتهم الكبر (كمبردج) : انني لم أر في الشرق ولا في الغرب مثله . ولم تكن الامة قد تكونت في عهده تكونا تعرف به كنه قيمته ، وتعمل بإرشاده وزعامته ، وهذا تلميذه الزعيم الكبير الذي تحتفل به اليوم قد كان أهلا لهذه الزعامة منذ سنين كثيرة ولم تكن الامة تعرف فيه ذلك على شهرته ، لانها لم تكن تعرف نفسها فتعرف زعيمها . ثم ذكرت من صفات سعد ما اقتضاه المقام ، وهو في معنى ما تقدم في موضعه من هذا المقال .

وهنا تلطفت في الاشارة الى الرد على ما رماه به القصص مرجيوس من العناد والتعصب لرأيه ، وقلت ان الذي نعهده منه بالاختبار الاستقلال في الرأي واحترام الحقيقة والاعتراف بها اذا ظهرت له ، ولطالما شهدنا له في دوره محاورات في مسائل علمية واجتماعية كان ينصف فيها مناظريه ومحاوريه بكل ارتياح ، ويعترف بصحة رأيهم اذا ظهر له انه الصواب ، وربما كنا منهم أو معهم في بعض الاحيان

واستطردت في الخطاب الى الرد على من ينكرون فائدة هذه الاحتفالات والمظاهرات بأنها هي الذريعة الوحيدة الى جعل عقيدة الاستقلال شعورا عاما شاملا لقلوب جميع أفراد الامة من جميع طبقاتها في زمن قصير ، والى تربية أطفالها

وثابتتها عليها ، فان هتاف الالوف الكثيرة من الرجال والنساء والاطفال في المجامع والشوارع والبيوت للاستقلال التام ولمصر الحرة وازعيمها المطالب باستقلالها وحريتها والوفد العامل معه قد علم جميع الامميين من الطبقات الدنيا وأشعرهم بما لم يكن يعلمه ويشعر به الا أهل التعليم العالي والتربية الاجتماعية السياسية

انتقلت من هذا الى بحث قلت انه أشبه بالدرس منه بالخطابة ، وهو ما يجب على الامة من العمل للمحافظة على دوام وحدتها وتكافلها في سبيل المطالبة باستقلالها وما يجب لحفظ الاستقلال والنهوض باعبائه اذا نالته وأهم ذلك وأعلاه ما يسمى المسألة الاقتصادية ، وحفظ ثروة الامة ، وليس هذا من موضوع مقالنا هذا فنلخص فيه ما قلناه في ذلك الخطاب وطالما كررناه في المنار وفي بعض المقالات التي نشرناها في المؤيد والجريدة ومن أشهر هذه المقالات ما عنوانه (الى أي شيء آلت يا مصر أخوج)

وجملة القول ان مكانة الزعيم الذي يمثل وحدة الامة في اول العهد بتكونها السياسي ودخولها في ميدان الجهاد القومي للحرية والاستقلال لها شأن عظيم في جهادها فيجب ان يحرص على تقويتها لئلا ينصدع بناء الوحدة في أشد اوقات الحاجة اليه ولا يخفى على أهل البصيرة ان تقويم عوج في الزعيم الموثوق به من السواد الاعظم ايسر من اقامته واستبدال غيره به ، وان تأييد الوحدة به على ضعف وعوج فيه ، خير من شق عصاها بخذله والتفرق عنه

فان اسقاط خصوم سعد اسقاطه من مكانته ، باقناع الامة بعدم كفاءته فمن ذا الذي يستطيع اقناعها بكفاءة زعيم آخر من بعده ، اذا فرضنا انه يوجد فيها كثيرون من مثله ، ومثل كثير في الانام قليل ، ومن ذا الذي يستطيع في كل وقت ان يحدث لها احداثا كالاحداث التي مهدت السبيل لزعامة سعد ، كغفلة رقباء الشعوب وحراسها ، ورعاة الامم وسواسها ، وقطاع طرق الاستقلال والحرية عليها ، تلك الغفلة التي اوقعت انكلترة فيها سكرة الحرب أولا ونشوة الظفر آخرا فكان من أثر السكرتين في رجالها بمصر ما وقعوا فيه من الاغلاط الاجنبية والسياسية التي جمعت كلمة الشعب مع حكومته أول مرة في تاريخ الاحتلال . وقد أشرنا في هذا المقال الى ما كان من فائدة ذلك في تكوين الوحدة المصرية وجمع الكلمة على سعد في

وزارة رشدي، وقد تم ذلك وكمل في وزارة عدلي التي هي وزارة رشدي بعينها في وقت آخر وترتيب آخر، اذ لولا هذه الوزارة لما امكن الشعب ان يحتفل بعودة سعد الى البلاد تلك الاحتفالات العامة التي لم يسبق لها نظير. ولكن والأمر كما قد صدق في هذا المقام قول الشاعر: لخاتم ثوب بدا نقصه * على أنه جنة التمام وما تلاه من النقص انما كان في طور واحد من اطوار حياة هذا الشعب الاجتماعية وفي فصل من فصول تاريخه فحسبي أن عنده عبرة تقيه ان يلدغ من جحر مرتين، وخبرة تجعل الفوز منه قاب قوسين

جهاد سعد الاخير

(١٧) علم سعد باشا بما كان من التجربة الاخيرة والاختبار ان الامة التي اجتمعت كلمتها على طلب الحرية والاستقلال وحملته لسانها الناطق، وقالها الخافق ولم يمكنها اعلان رأيها واظهار شعورها الا بمواتاة الحكومة الوطنية لها، وان تأثير الحكام في أنفس هذا الشعب وما ورثه وتمرن عليه من الخضوع لهم منذ التاريخ القديم لا يزول كله في أول نهضة قومية جديدة، وان وافق أصول شرعها الالهي (وأمرهم شورى بينهم) وأصول الحقوق البشرية التي يسمونها الدمقراطية الحديثة، ولعله لم يقدر هذا القدر كما ينبغي الا بعد الحوادث الاخيرة، اذ لم يكن يخطر ببال أحد أن يصد عنه بغرة الوزارة الالوف الكثيرة، حتى من أولئك الذين اقاموا لها أكبر المحافل، وأنفق للآدب، وأن يشايعهم على ذلك أكبر الجرائد، فلهذا وجه كل عنايته الى تقوية روح شخصية الامة والفكرة الدمقراطية فيها بصلاته الشديدة على الوزارة العدلية في خطبه البليغة، وبلاغاته واحتجاجاته المختلفة على سلوكها فيما سماه «اغتصاب الثقة من الامة»

فهو يمثل للامة وزارة عدلي باشا متفقة مع الدولة البريطانية على جعل سلطانها (أي حكمها وسلطتها) على مصر شرعيا بعقد معاهدة على أصول مشروع ملنر الذي رفضته هو الامة يلغى فيها الحماية ويقرر محلها بصفة شرعية، بعد ان كان عدوانا تبطله الحقوق الاساسية والقوانين الدولية، وترضى فيها البلاد بضرب من الاستقلال في الادارة يتعذر تنفيذه لما وضع في سبيله من العوائق والعقبات البكاداء، على

أنه عرضة للالغاء أو الاسترداد ، مادامت قوة الاحتلال العسكرية راسخة الاقدام في البلاد ، وتأهبك بما أنشأوا فيها من ميادين الطيران الحربية والتجارية ، لجعلها ملتقى جميع قوى الامبراطورية البريطانية

وأقول إن من أقوى حججه له على ان الانكليز يريدون خداع مصر وارضاءها باستقلال صوري حظها منه دون حظ سائر مستعمراتها المستقلة تعظيمهم لشأن حادثة الاسكندرية التي يمكن حدوث مثلها في كل بلد من البلاد يوجد فيه اجناس مختلفون او احداثه ببذل قليل من المال ، فقد هيجوا جاليات الاجانب والدول الاوربية بها على المصريين وخوفوهم منهم على ارواحهم وأموالهم ، اذا لم تكن الجيوش البريطانية بعدافعها وطياراتها حامية لهم ، واتخذتها برقياتهم وجرائدهم اياها حجة بالغة على ان المصريين غير أهل للاستقلال بالادارة والحكم

حادثة الاسكندرية ، وما ادراك ما حادثة الاسكندرية ، هي الحادثة النافهة التي عظم شأنها غلاة الاستعمار بكيدهم وهيثم بالامم والدول ، ولعبهم بها كلعب الصبيان بالكرة ، حتى جعلوها من أعظم حوادث الكون التي يقضي العدل بأن تكون القاضية على حرية الامة المصرية بأسرها — وهي ان بعض السوقة والعوام مروا في مظاهرة وطنية ببعض بيوت الروم (اليونانيين) وكانوا يهتفون لمصطفى باشا كمال بطاعنة الوجدان الديني الذي لا يدع هددا من جريدة اسلامية في تونس خاليا من الاشادة بذكره ، والتعظيم لامره ، فأطلق عليهم الرصاص بعض اليونانيين فأصاب بعضهم وجر ذلك الى تشاجر بين الوطنيين واليونانيين ومن يشبه بهم من الغربيين قتل به أفراد من الفريقين وجرح آخرون والمصابون من الوطنيين أكثر ، وقد استنكر ذلك واظهر الاسف لوقوعه جميع المصريين من جميع البلاد في جميع الجرائد ، واصدر الزعيم الاكبر سعد باشا زغلول وصية للامة بأن تبالغ في مجاملة الاجانب وحسن معاملتهم ولا تعتدي عليهم وان هم اعتدوا عليها

لكن السياسة التي تستحل كل منكر في سبيل مطامعها جعلت هذه الحادثة برهانا قاطعا على بغض جميع المصريين الذين استنكروها وقبحوها لجميع الاجانب وتحميلهم عليهم وزر بعضهم بهم الدوائر لهتكوا بهم ، ولو كان المصريون متعصبين على

الاجانب وماقبين لهم ، لظهر أثر ذلك في كل بلد فيه أجانب ليس لهم من القوة مثل ما للاجانب في الاسكندرية التي تكاد تكون بلدا أجنبية ولا سيما في اثناء ثورة سنة ١٩١٩ على الانكليز أنفسهم ، والهجوم على رشاشاتهم ومدافعهم ، وقد كانت السلطة في كثير من البلاد لعامة الامة في تلك الاثناء لا للحكومة الوطنية ولا للمحتلين — ولو كان المصريون كذلك لما نال اليونان في بلادهم هذه الحرية الواسعة التي ليس لهم مثلها في بلادهم ولقد كانوا قبل الاحتلال مع سائر الاجانب أعظم كسبا وأقوى نفوذا ، ولو كان المصريون كما ذكر لامكنهم ان يلغوا من النكاية باليونان بمقاطعة تجارتهم وزراعتهم مالا يبلغه الاعتداء على اشخاصهم

فحق لكل مصري ان يعد سلوك الانكليز في تكبير هذه الحادثة دليلا على نيتهم فيهم ، وهم يعلمون انه اذا كان الاستقلال يتوقف في وجوده أو بقائه على استحالة وقوع مثل هذه الحادثة فلا مطمع لان هذا مما يمكن حدوثه واحداثه في كل آن. ومن غرائب مزاعم هؤلاء البارعين في تصوير الحوادث بغير صورها والاستفادة منها في كل زمن بحسبه ان حادثة الاسكندرية كانت في الزمن الذي تروي لنا برقيات انكلترة وجرائدها أنباء الارتداد بين (السين فين) اخذان المصريين في رفض العبودية البريطانية في تدميرهم للمباني التجارية وغيرها واغتيالهم لمن استطاعوا اغتياله من السالبين لحريتهم ، ولم نسمع ان أحدا منهم احتج بهذه الافاعيل المخزية بمثل ما احتجوا على المصريين في حادثة تعد بالنسبة اليها ضئيلة ويكثر وقوع مثلها في كل أمة ، ولكن لولا هذا التهويل في الحادثة لكثير من عقلاء اليونان وغيرهم من فضلاء الاوروبيين وشهدوا بما شاهدوا من تسامح المصريين واكرامهم للاجانب وحسن معاشرتهم لهم ، ولو سكت هؤلاء او جروا في أباطيل تيار السياسة الكاذبة لغرسوا في قلوب المصريين وسائر الشرقيين من بغض الاوروبيين وسوء الاعتقاد فيهم مالا يمكن ان يتلافى مستقبله الاحتلال العسكري للبلاد بل لا يزيده الا اشتعالا ، وهل يوجد بشر يحب الانسانية يرضى هذا ويرضاه ؟

وجملة القول ان جهاد سعد باشا موجه الآن لتقوية الامة واعدادها لرد مايتوقع من تقييد وفد الحكومة البلاد به بضمها الى الامبراطورية البريطانية بأي اسم من

الاسماء وأي شكل من اشكال الحكم الذاتي بحيث يكون الاتفاق الجديد بين الحكومتين إن تفد مظاهرا من مظاهر القوة لاشبهة فيه من الحق وتستمر الامة على جهادها له حتى تنال حريتها تامة كاملة باذن الله وقوته التي لا تملوها قوة ورحمته التي لا تضيع حقا الا على من فرط في حقه وترك الجهاد في سبيله لكان هو المفهم له بمخالفته لسنن الله في العمران

لهذا الذي شرحناه كنا نعجب جدا العجب من طلب سعد لرياسة الوفد الرسمي وتولي المفاوضة لانا نعتقد أنه لا يخفى عليه ان الدولة البريطانية يستحيل ان تسمح بحرية مصر واستقلالها التام بمجرد المفاوضة السياسية ونقول في نفسنا لم يريد سعد ان يعرض نفسه للفشل واذا كان لا يرضى بجعل الحماية شرعية باسم آخر ، أم يظن ان الاتفاق على تولية أمر المفاوضة كان في جعل ذلك المحال السياسي ممكنا وواقعا ولما اعترض بعض الكتاب كأمين بك الرافعي على دخوله في المفاوضة الرسمية كنا ممن لم يروا رأيه اذا كان معينا رأينا الى ان صار شقة قال زعيم الامة لان الزعامة الممثلة بالوحدة فوق كل شيء في هذا المقام . ولم نجد مخرجا من هذا العجب والحيرة الا بما جاءتنا به الجرائد الانكليزية من التصريح برفض سعد لمشروع ماتر برمته وعدم الرجاء بعقد اتفاق معه يرضى بريطانية العظمى — فظاهر لنا من ذلك انه كان يخفي في نفسه شيئا وسع الجميع دائرة الجدل وطول الشقاق لان اظهاره يفسد الخطة التي كان يرى انه لابد منها وهي — أي الخطة — اما حمل الحكومة بقوة وحدة الامة على تقييد نفسها بالمرسوم السلطاني الذي طلبه حتى تكون الحكومة والامة كلمة واحدة لا يخشى من يفرقها الدهاء الانكليزي لينال مراده من جعل مركزه في مصر شرعيا — وإما جعل الحكومة عاجزة عن عقد اتفاق مع الدولة البريطانية لا ترضاه الامة ويكون حجة عليها ولو تحقق الشق الاول من خطته لكانت الامة المصرية وحكومتها وسلطانها كتلة واحدة كلمتها واحدة واذ لم يتم فتأييد الوفد الرسمي والوزارة يحبط الشق الثاني — فتميت معارضتها . ولم يكن التصريح بذلك لاعضاء الوفد المتفقين مع عدلي باشر من قبل ممكنا كما علم مما سبق من التفصيل ، بل لم يكن من الممكن أيضا ان يصرح سعد للامة بقصد صدوده أن الدولة البريطانية تريد منا كذا وكذا وترى انها لن تجد اليه سبيلا

الا بقوة حكومة وطنية تصدع بناء الوحدة التي هي قوتنا في اظهار حقنا امام قواها الكثيرة التي تعتمد عليها في سلب هذا الحق منا لان هذا التصريح ينافي الخطة التي استنبطناها على كونه غير معقول — فان معناه دعوة الحكومة جهرا من أعلاها الى أدناها الى مقاومة الدولة البريطانية ، وهو تصريح لا يأتي من عاقل

النتيجة

(١٨) هذا ما ظهر لنا من سياسة سعد باشا وخطته بعد التروي والتمحيص ، ولعل هذا قد خفي على الالوف من الناس بضروب الجدل والمطاعن ، وأكثر من أيد وفد الوزارة الرسمي انما أيدوه في طلب الاستقلال التام المطلق لمصر والسودان الذي هو جزء من المملكة المصرية لا يقبل الانفصال وكثير منهم يعتقدون أن مطلب سعد وعدلي واحد وان عدلي اذا لم يوفق الى هذا المطلب فانه يقطع المفاوضة ويعود بالوفد الرسمي ادراجه خلافا لما يعتقد السعديون كافة . فالاحتمالات في نتيجة سعي الوفد الرسمي ثلاثة أو أربعة لكل منها عاقبة

الاحتمال الاول — عقد الاتفاق مع الحكومة البريطانية على اعترافها باستقلال مصر مع السودان استقلالا دوليا تاما مطلقا من كل قيد ينافيه مع محالفة بين الدولتين أساسها مبادلة المنافع كسائر المحالفات الدولية ، فان وفق الوفد لهذا فان الامة تتلقاه بالقبول والثناء وتكريمه بمثل ما كرمت به سعد باشا بل أعظم ويكون ذلك اجماعا صحيحا من الامة — وان فرض أن شذ سعد باشا عنها في ذلك وظل معارضا لعدلي باشا فانها تنبذه ظهريا وتحكم عليه بأنه يعمل لنفسه لا لها

فيا دارها بالخيف ان مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

الاحتمال الثاني — أن ييأس عدلي باشا من الاستقلال التام المبين في الاحتمال الاول او ما يقرب منه فيقطع المفاوضة ويعود بالوفد أدراجه — وعاقبة هذا ان تعود وحدة الامة الى خير مما كانت عليه وتستأنف الجهاد السياسي في سبيل حريتها ، ويتفق سعد وعدلي ورشدي ثانية في ذلك ويكون الرجاء في النجاح عظيما ، فان يد الله على الجماعة كما صح في الحديث ويد الله لا تغلب . وقد رأيت من المحسنين الظن في هؤلاء الكبراء كلهم من كان يعتقد ان الخلاف بينهم صوري تواطؤا

هايته لاجل المسألة . و يتوقع كثير من العارفين بأخلاق عدلي باشا و وطنيته ان يقتنع المعارضة بل يرجحون ذلك على نجاحه فيها

الاحتمال الثالث — ان يصح رأي سعد و يعقد الوفد الرسمي الاتفاق الذي يقيد مصر و ينظمها في تلك الامبراطورية البريطانية باسم من الاسماء المعروفة والمخترعة. وعاقبة هذا ان تتحول قلوب أكثر الذين كانوا يحسنون الظن بعدلي او رشدي عنهما و يكبر حزب سعد بل تكون الامة كلها معه الا من لا يذكر من طلاب الوظائف والمنافع من الحكومة ولكن لا يعلم أحد الا الله ما يترتب على اصطدام قوة الامة وقوة الحكومة المؤيدة بقوة الاحتلال اذا حاولت الوزارة تأييد الاتفاق بالقوة ولا يظن أحد يعرف قيمة عدلي ورشدي بأنهما يفعلان ذلك ولكن قد يفعلانه في حال الاحتمال الرابع المذبذب بين هذا و بين الاول وهو :

(الاحتمال الرابع) ان يعقد الاتفاق على اعتراف انكلترة باستقلال سياسي دولي تام لمصر في داخليتها وخارجيتها وحقوق في السودان لا تتبع مصر في الادارة وارتباط بالامبراطورية بمعاهدة لا يعرض مصر للخطر في سلم ولا حرب. وأعظم الخطر تعهد مصر بأن تجعل قواها ومواصلاتها تحت تصرف الجيش البريطاني وهو ما سبق المقطم بجميع الجرائد الى بيانه. ففي مثل هذه الحالة تجد الوزارة من الانصار ما تقاوم به السواد الاعظم الذي يقوده سعد باشا ونسأل الله حسن العاقبة وانقاذ هذه البلاد من كل محنة انه سميع مجيب ؟

السياسة ورجال الدين في مصر

يعلم رجال الاستعمار ما لا يعلم رجال الدين في البلاد المستعمرة بالفعل او بالقوة من سلطان الدين على الارواح ، وأثيره في الارادة الباعثة على الاعمال . فهم يعنون أدق العناية في كل شعب يظله سلطانهم بازهاق روح دين الشعب الذي على غير دينهم او تحويله عن مذهبه اذا كان مخالفا لمذهبهم ويعنون فيه دعاة مذاهبهم الدينية ويؤيدونهم بما لديهم من حول وقوة ، ومن مناهضتهم لدين الشعب واضعاف رجاله عن اعمال الحكومة ومناصبها وتعريض جل أصحاب الوظائف الشرعية